تَجْديدُ

المِنْوَالِ اللِّسَانِيّ

بُحوثٌ مُحَكَّمَةٌ مُهْداة إلى
الأستاذ عزّ الدّين المجدوب

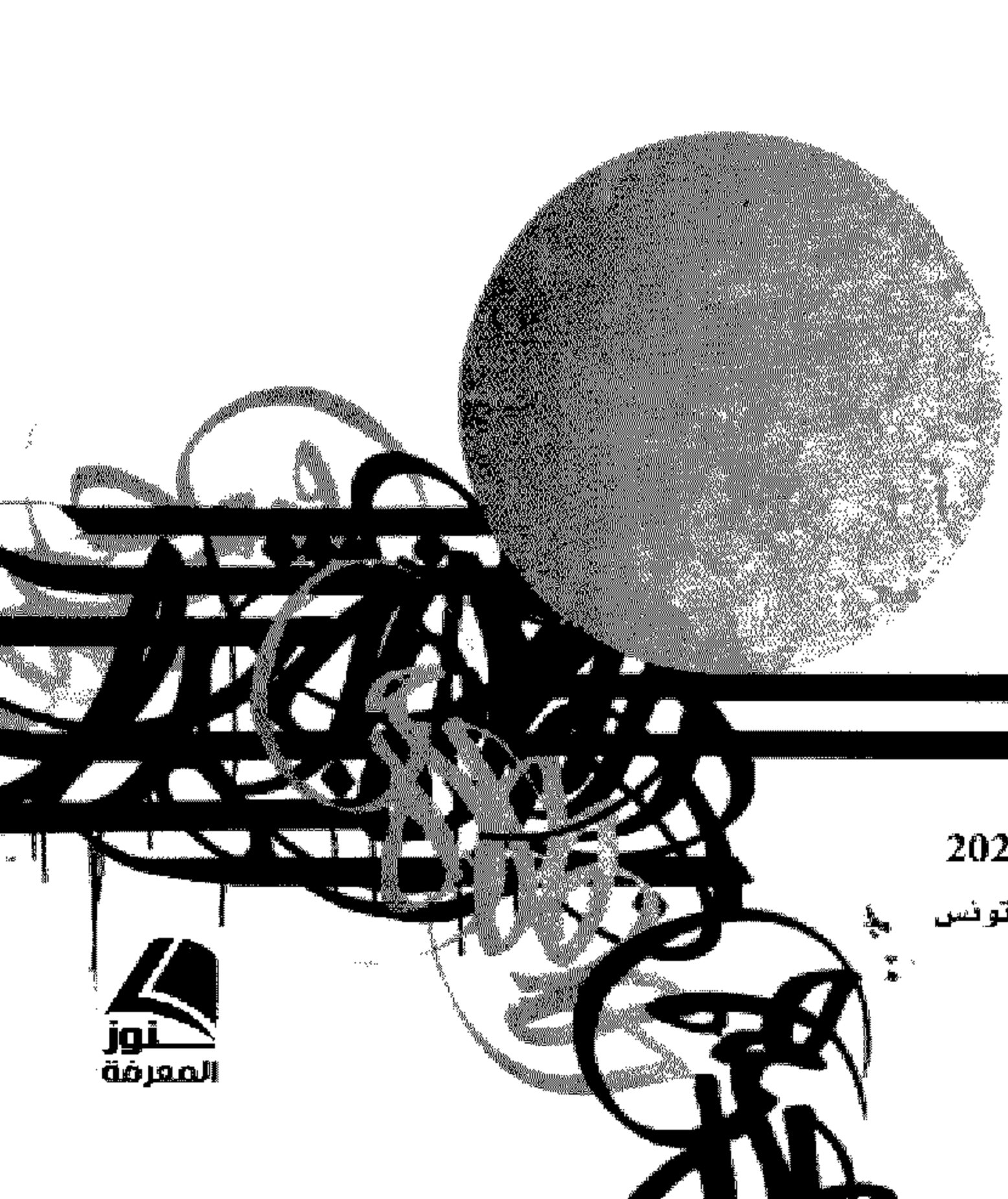

تحرير
د. فدوى العذاري

ندوة عقدت يومي 11-12 مارس 2020
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة سوسة/ تونس

نور المعرفة

تَجْـديدُ
الـمِنْـوَالِ اللِّسَـانِيّ

بحوثٌ مُحكَّمَةٌ مُهْداة إلى
الأستاذ عزّ الدّين المجدوب

تَجْـديدُ
المِنْـوَالِ اللِّسَـانِيّ

بُحوثٌ مُحَكَّمَةٌ مُهْداة إلى
الأستاذ عزّ الدّين المجدوب

ندوة عقدت يومي 11-12 مارس 2020
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة سوسة/ تونس

تحرير

د. فـدوى العـذاري

نوز المعرفة

تجديد المنوال اللساني: بحوث محكمة

تحرير: فدوى العذاري

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية الأردنية: 2020/10/4371

ردمك: ISBN: 978 9957 74 918 7

الطبعة الأولى: 2021م/ 1442هـ

جميع الحقوق محفوظة © 2021

دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع
Dar Kunouz Al Marefa Publishers

عمّان – الأردن Amman - Jordan
عمّان: وسط البلد – ش. الملك حسين
مقابل بنك الإسكان
هاتف Tel: 00962 6 4655877
خلوي: Mobile: 00962 79 5525 494
E-mail : dar_konoz@yahoo.com
www.darkonoz.com

جميع الحقوق محفوظة لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو استنساخه أو نقله كليا أو جزئيا — في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطرق إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها — دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

Copyright © All Rights Reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the Publisher.

التأثير في المخاطب بالالتفات الزمني في القرآن الكريم

د. منى سالم عامر الجابري

أستاذ مساعد، سلطنة عمان، جامعة التقنية والعلوم التطبيقية

muna jabri.niz@cas.edu.om

1- المقدمة

إن القرآن الكريم خطاب إلهي دقيق المعاني والعبارات له تأثيره العميق في نفوس المتلقين وفي قلوبهم وعقولهم، وهو خطاب موجَّه، لم تنتظم ألفاظه وعباراته جزافًا. تحدّى الله – عزوجل- به أفصح الناس فعجزوا عنه، برغم أنه قد استعمل الأساليب نفسها التي كان يستعملها أهل العربية، اللغة التي نزل بها. وقد كان «الالتفات الزمني» أحد هذه الأساليب، وقد مثّل أداة من أدوات التأثير في المخاطَبين من الناحية الفكرية الإقناعية. أومن الناحية النفسية الشعورية، فالالتفات الزمني ظاهرة تخاطبية يتجلّى من خلالها بوضوح الدور التأثيري للخطاب، وله طابعه الخاص في الاستعمال التخاطبي بوجه عام والخطاب القرآني بنحو خاص، لذلك رأيت أنه من الضرورة بمكان العودة إليه وإفراده بدراسة مستقلة مع التركيز على تأثيره في المخاطَب من الناحيتين الذهنية والشعورية.

وإذا ما تتبعنا كتب القدماء فإننا نجد الحديث عن الالتفات –بشكل عام– متناثرًا في كتب البلاغة، ومؤلفات التفسير، وعلوم القرآن والإعجاز القرآني، وقد اقتصر حديثهم عن الالتفات الزمني في المخالفة في استعمال الصيغ الفعلية، وإذا ما انتقلنا إلى دراسات المحدثين وجدنا بعضهم قد أفرد للالتفات – بمعناه العام– دراسة مستقلة لكن لا تطالعنا – في حدود علم الباحثة– دراسة

اهتمت بنحو خاص بالالتفات الزمني وتأثيره في المخاطب في القرآن الكريم، ومن هذه الدراسات نذكر على سبيل المثال:

- حسن طبل،أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، 1990م.
- الشاذلي الهيشري، الالتفات في القرآن، 1991م.
- مازن موفق صديق الخيرو، الإعجاز البلاغي في الخطاب القرآني «الالتفات أنموذجًا»، 2010م.
- فيصل عبد النبي فاجح، الالتفات في القرآن الكريم «دراسة في القيم البلاغية» 2013م.

ويرجو هذا البحث أن يحقق عدة أهداف منها: التأكيد على تخاطبية القرآن، وإضاءة جانب من جوانب الإعجاز القرآني، وأنه خطاب له تأثيره العميق في مخاطَبيه، وإثبات ظاهرة «الالتفات الزمني» في القرآن الكريم، وأنها لا تقتصر على المخالفة في استعمال الصيغ الفعلية، وإنما تتجاوز ذلك إلى الصورة الزمنية للمتحدَّث عنه، وأن هذا النوع من الالتفات، لا يقل شأنًا وتأثيرًا في العملية التخاطبية من التفات الضمائر، فهو يؤثر في المخاطَب ذهنيًا كما يؤثر في مشاعره وأحاسيسه.

ولتحقيق ذلك سيتم الاعتماد على قراءة حفص عن عاصم في تتبع الآيات القرآنية، وسيتم تقسيمه إلى تمهيد وسبعة مباحث على النحو الآتي: سيتناول التمهيد تأثير الخطاب في المخاطَب، وتأثير الخطاب القرآني في متلقيه، يليه تحديد المقصود بالالتفات، وعناصر الدلالة الزمنية في الخطاب، وشروط الالتفات الزمني، وقوّته التأثيرية، ومن ثم دراسة تأثيره في مشاهد القيامة، وفي القصص القرآني،وفي تذكير بني إسرائيل بتعذيب فرعون، يليه ملخص، وثبت المراجع.

2- تأثير الخطاب في المخاطب.

إن اللغة بألفاظها ومعانيها وأساليبها أدوات يسخرها المخاطِب في خطابه لخدمة أغراضه ومقاصده، فبها يؤثر على مخاطَبه سواء كان ذلك على الصعيد الفكري الإقناعي أوعلى الصعيد النفسي الشعوري، وقد رُوي عن النبي-ﷺ-

قوله: «إن من البيان لسحرًا»[1] فالبيان سحر لما ينجم عنه من تأثير عميق في المخاطَب: ذلك أن الخطاب ليس مجرد نقل وتبادل للمعلومات وإنما هو تأثير في المخاطَب من جميع النواحي بما فيها الفكرية والنفسية والشعورية. وبالخطاب قد يملك المخاطِب المخاطَب، فيسلب عقله وقلبه. فرب خطاب جلب سعادة وانشراح صدر للمخاطَب ورب خطاب آخر أثَّر عليه فجعل الحزن والضيق تسري إلى قلبه، وقد يحمله على التخلي عن آماله وطموحاته أو يتراجع عمَّا يتبناه من أفكار ومبادئ...إلخ. وقديمًا ربط القدماء بين البلاغة والقوَّة التأثيرية للخطاب في المخاطَب، فقد جعل ابن الأثير «مدار البلاغة كلها على استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم، لأنه لا انتفاع بإيراد الأفكار المليحة الرائقة، والمعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطَب بها».[2] فمدار البلاغة لديه إنما يكون بالأثر الذي يحدثه الخطاب في المخاطَب فتكون ردة فعله الإذعان والتسليم لمخاطِبه.

3- تأثير الخطاب القرآني في المخاطب

تصور العديد من الآيات القرآنية تأثير القرآن في متلقيه، فهو لو أُنزِلَ على الجبل رمز الصلابة والقوة لخشع وتصدع يقول الله تعالى: ﴿**لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**.﴾[3]

وهاهم الجن يستمعون إليه فيعبرون عن تأثرهم بأن يسرعوا بإنذار قومهم قال تعالى: ﴿**وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ** (29) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ **يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ** (30) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ

---

(1) صحيح البخاري، الحديث رقم5767، ص 4/1841.

(2) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، 2/64.

(3) سورة الحشر، الآية 21.

أليم﴾[1]. ويتعجبون منه: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا.﴾[2]

وهو يؤثر في قلوب غير المسلمين يقول الله عزوجل: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (83) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ.﴾[3] وقال: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (107) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (108) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا.﴾[4]

وفي المقابل هناك العديد من البشر لا يتأثرون به لأن قلوبهم قد أُغلقت وتحجرت واندثرت مشاعرهم وعطلت عقولهم فهم موتى لكنهم على قيد الحياة قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ.﴾[5] ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ.﴾[6]

وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (45) وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا.﴾[7] وقال أيضًا:

---

(1) سورة الأحقاف، الآيات 29- 31.

(2) سورة الجن، الآيات 1-2.

(3) سورة المائدة، الآيات: 83- 84

(4) سورة الإسراء، الآيات: 107-109

(5) سورة الأنفال، الآية 31.

(6) سورة يونس، الآية 15.

(7) سورة الإسراء، الآيات: 45-46 .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ.﴾[1] ومن ذلك الحج 72، ولقمان 7، وسبأ 43، والأحقاف 7، والقلم 15، والمدثر 18-25، والمطففين13 .

وفي الحقيقة إن القرآن يتوجه إلى عقول مخاطبيه ويدعوها إلى التأمل والتفكر والتمعن، ويرشدهم إلى الطريق الأقوم في إدراكهم للقضايا الإيمانية، فهو يقنع العقول السليمة بالإيمان المبني على علم ويقين واقتناع، وهو في الوقت نفسه يجعل لقلوبهم حظًا فيخاطب النفس والوجدان ويستثير المشاعر والأحاسيس من ترغيب وترهيب وتنفير وتشويق وتحسير وتنديم...إلخ يقول الخطابي: «في إعجاز القرآن وجه آخر... وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظومًا ولا منثورًا إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها.»[2] فالقرآن الكريم لا ينسى حق العقل من حكمة وعبرة وإقناع وتأثير في الفكر كما لا ينسى حق القلب من تشويق وترقيق وتهويل وتعجيب، وبذلك يتحقق التوازن في الخطاب القرآني بين قوتي التفكير والوجدان[3].

4- المقصود بالالتفات

4-1 الالتفات لغة

يدور لفظ الالتفات في معاجم اللغة حول معنيين هما: اللَّي، والصرف، ففي

---

(1) سورة فصلت، الآية 26.

(2) الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص 70 ويُنظر: السيوطي، الإتقان، 248/2 .

(3) ينظر محمد عبدالله دراز إلى لقوة الوجدان على أنها «الامتاع» بينما ترى هذه الدراسة أن هذه القوة ماثلة في استثارة المشاعر والأحاسيس. يُنظر: النبأ العظيم، 140 146.

الصحاح: اللفت: اللّي... ولفت وجهه عني صرفه، ولفته عن رأيه: صرفه.»[1] وفي مقاييس اللغة: «(لَفَتَ) اللام والفاء والتاء كلمة واحدة تدل على اللّي وصرْف الشيء عن جهته المستقيمة. منه لَفَتُّ الشيء: لويته، ولَفَتُّ فلانًا عن رأيه: صَرَفْتُه.»[2] وفي لسان العرب: «لفت وجهه عن القوم: صرفه... وتلفّت إلى الشيء والتفت إليه: صرف وجهه إليه... واللَّفت: اللَّي.»[3] والملاحظ أن المعنى اللغوي للالتفات يشير إلى التحوّل والتغيير من حال إلى آخر أو من وجهة إلى أخرى.

2-4 الالتفات اصطلاحًا

إن المعنى الاصطلاحي للالتفات لم يبعد كثيرًا عن معناه اللغوي وهو اللّي والصرف والتحوّل ولذلك نجد بعض القدماء يحدّه بطريقة إجرائه في الخطاب باعتباره صرفًا وتحولاً في الخطاب وتغييرا لنسقه،[4] ومنهم من ربطه بنحو مباشر بمعناه اللغوي.[5] والجدير بالذكر هنا أن القدماء في حدِّهم للالتفات بمعناه العام – على اختلاف نظرتهم إليه – منهم من حدّه على أنّه عودة ورجوع إلى مذكور سابق ومن هؤلاء قدامة بن جعفر حيث قال: «هو أن يكون الشاعر آخذًا في معنى فكأنه إما يعترضه شك فيه أو ظن بأن رادًا عليه قوله، أو سائلاً يسأله عن سببه فيعود راجعًا إلى ما قدّمه فإما أن يذكر سببه أو يحل الشك فيه.»[6]، والثعالبي في قوله: «هو أن تذكر الشيء وتتم معنى الكلام به ثم تعود

---

(1) الجوهري، مادة: لَفَتَ.

(2) ابن فارس، مادة: لَفَتَ.

(3) لسان العرب، مادة: لَفَتَ.

(4) يُنظر: ابن المعتز، البديع، ص152. وقدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص150. والثعالبي، فقه اللغة، ص 304. وابن رشيق القيرواني، العمدة، ص45/2. وأبو طاهر البغدادي، قانون البلاغة، ص110. والوطواط، حدائق السحر، ص134. والسكاكي، مفتاح العلوم، ص199. وتجم الدين بن الأثير، جوهر الكنز، ص119؛ 120. والزركشي، البرهان، 314/3. والسيوطي، الإتقان، ص155/2. وكذلك، معترك الأقران، ص 377/1.

(5) يُنظر: ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر، ص135/2. والعلوي، الطراز، ص 131/2؛132.

(6) نقد الشعر، ص 150.

لذكره كأنك تلتفت إليه.»[1] ومنهم من حدَّه على أنه يمثل تحولاً عن مذكور سابق وبناءً على ذلك يكون الالتفات انتقالاً بتغيير نمط أسلوب الخطاب وكسر رتابته ومن هؤلاء ابن المعتز في قوله: «هو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار، وعن الإخبار إلى المخاطبة، وما يشبه ذلك ومن الالتفات **الانصراف عن معنى** يكون فيه إلى معنى آخر.»[2] والعلوي حيث قال: «هو العدول من **أسلوب في الكلام إلى أسلوب** آخر مخالف للأول.»[3] ومنهم من جمع بين المعنيين كابن رشيق القيرواني في قوله: «أن يكون **الشاعر** آخذاً في معنى، ثم يعرض له غيره، **فيعدل عن الأول إلى الثاني** فيأتي به، **ثم يعود إلى الأول** من غير أن يخل في شيء مما يشدّ الأول.»[4] وأبي طاهر البغدادي حيث قال: «**هو** أن يكون الشاعر في كلام **فيعدل عنه** إلى غيره قبل أن يتم الأول **ثم يعود إليه فيتممه**.»[5] وترى هذه الدراسة أن الالتفات بمعناه العام – سواء كان التفاتًا في الضمائر أو التفاتًا زمنيًا إنما هو تحوّل عن مذكور سابق إلى آخر مخالف له، وذلك لعدة أسباب منها[6]:

1- إن من اعتبره عودة ورجوعا اختلطت عليه ظواهر لغوية أخرى تحتمل هذا المعنى كالاستطراد والاعتراض.
2- إن الفائدة العامة للالتفات ترتكز أساسًا على كونه يمثل تحولاً وانتقالاً وتغييرًا لنمط سابق.
3- النظر إلى الالتفات على أنه تحول عن سابق هو الأشد ارتباطًا بالمعنى اللغوي للفظ «التفات» وكثيرًا ما يستعمل القدماء المعنى الاصطلاحي مرتبطًا بمعناه اللغوي، وموافقًا له.
4- إن شروط إجراء الالتفات إنما تتحقق بالتحول والانتقال عن مذكور سابق.

---

(1) **فقه اللغة**، ص 304، وينظر: أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 358.

(2) **البديع**، 152.

(3) **الطراز**، 132/2.

(4) **العمدة**، ص 45/2.

(5) **قانون البلاغة**، ص110.

(6) يُنظر: منى الجابري، المشيرات المقامية في القرآن، ص 136.

5- الدلالة الزمنية في الخطاب

قبل الخوض في الحديث عن «الالتفات الزمني» لابد من تحديد العناصر المستعملة للدلالة الزمنية في الحدث التخاطبي، ومن المعلوم أن هذه الدلالة إنما تكون متوجهة إلى زمن إجراء الخطاب أو زمن مقيس به: فالحاضر إنما هو المحايث في وجوده الإجراء الآني للحدث التخاطبي، بينما الماضي ما سبقه في كينونته، والمستقبل منتظر حدوثه ووجوده.

وترى هذه الدراسة أن الدلالة الزمنية في خطاب ما، يمكن تحديدها بالاعتماد على الصيغ الفعلية: الماضي والمضارع والأمر وما تشير إليه من زمن، وبالائتلاف مع بعض الحروف كـ«السين»، و«سوف»، و«لم» مع الفعل المضارع، وباستعمال الظروف الزمانية، كالآن، واليوم، والليلة...إلخ، وبوجود المشيرات المقامية في الحدث التخاطبي، وذلك كتوجيه الخطاب بضمائر الخطاب، وتجاور الأنا والأنت في الحضرة التخاطبية، وطلب إقبال المخاطَب بالنداء، والإشارة الآنية بأسماء الإشارة إلى زمان أومكان، أوجهة...إلخ. فهذه المشيرات وإن لم تدل على الزمن بشكل صريح، إلا أنها تشير إليه بقوّة ارتباطها بآن التلفظ والإجراء الآني للخطاب.

6- الالتفات الزمني

تنظر هذه الدراسة إلى الالتفات الزمني على أنه تصوير للمتحَدَّث عنه بصورتين زمنيتين مختلفتين أو أكثر حيث يتم ابتداءً رسم صورة زمنية له يتم التحول عنها إلى صورة زمنية أخرى مختلفة عنها. وبذلك يمكن توسيع دائرة الالتفات الزمني بعدم حصره في المخالفة في استعمال الصيغ والألفاظ المعبّرة عن الزمن وإنما بعرض مشهد تقع أحداثه في زمن ومن ثم نقله، أونقل بعض أجزائه إلى زمن آخر مختلف عنه. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ.﴾[1] تصوّر هذه الآية مصير فرعون مع ملئه يوم القيامة فقد بدأ مشهده وهو يقدمهم إلى النار بالمستقبل، بينما صوّر

(1) سورة هود، الآية 98.

ورودهم فيها بالماضي. ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿**وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ.**﴾[1] إن هذه الآية تصور تأثر الخلق بالنفخ في الصور حيث يصابون بالفزع وهو «انقباض ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخيف»[2] «يقال فَزِعَ يَفْزَعُ فَزَعًا إذا ذُعِرَ»[3] وقد صُوِّر النفخ بالمستقبل، بينما نتيجته المتمثلة في الفزع بالماضي. وبذلك تم تصوير أجزاء المشهد الواحد بزمنين مختلفين. ومن ذلك عرض الحوار بزمنين مختلفين كما في قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ.**﴾[4] ومنه قوله عز وجل: ﴿**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (17) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا.**﴾[5] وقوله عزوجل: ﴿**وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (47) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ.**﴾[6] ففي هذه الآيات تم تصوير الخطاب الموجَّه إليهم بالمستقبل بينما عُرض ردهم بصورة الماضي.

وقد يُصوَّر المشهد الواحد بثلاث صور زمنية ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿**أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (51) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ.**﴾[7] حيث يمثل قوله: ﴿**أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ**﴾ الصورة المستقبلية لوقوع يوم القيامة. بينما قوله عز وجل: ﴿**آمَنْتُمْ بِهِ**﴾ يصور ردة فعلهم لوقوعه بصورة الماضي، وبذلك يتم الالتفات من المستقبل إلى الماضي. أما توجيه الخطاب إليهم بـ﴿**آلآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ**﴾ فبه تم

---

(1) سورة النمل، الآية 87.

(2) الراغب الأصفهاني، **معجم مفردات ألفاظ القرآن**، مادة «فَزِعَ».

(3) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مادة «فَزِعَ».

(4) سورة المائدة، الآية 109.

(5) سورة الفرقان، الآيات 17: 18.

(6) سورة فصلت، الآيات 47: 48.

(7) سورة يونس، الآيات، 51: 52. ويُنظر: سورة الكهف، الآيات47: 48.

الالتفات من الماضي إلى الحاضر، وحدث التفات آخر من الحاضر إلى الماضي في قوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾(1).

وبناء على أن هذه الدراسة تنظر إلى الالتفات باعتباره تحولاً عن مذكور سابق، وكسرًا لرتابة الخطاب، فإن الالتفات الزمني لا يأتي في صدر الخطاب وإنما لا بد من وجود صورة زمنية سابقة يتم الالتفات عنها. وهو بذلك يمثل إنزياحًا عن نسق الخطاب، وكسرًا لقاعدته. وتغييرًا لوجهته الزمنية، والجدير بالذكر هنا أنه لا يُشترط في الصورة الزمنية الملتفت بها أن تمثل انزياحًا عن القاعدة اللغوية من جهة التطابق بين زمن حدوث الحدث في الواقع والصورة الزمنية التي يظهر بها في الخطاب، فليس كل انزياح في الصورة الزمنية للمتحدث عنه يُعدُّ التفاتًا، ففي قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ.﴾(2)

فعلى اعتبار أن المتحدّث عنه هو يوم القيامة، فإن إظهاره في صورة الماضي «أتى» يمثل انزياحًا عن القاعدة اللغوية ولكنه لا يُعد التفاتًا وإنما الالتفات في قوله عز وجل: ﴿فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، حيث ظهر بصورة المستقبل عقب صورة الماضي السابقة له، برغم أن الاستقبال هو الزمن الأصل لوجوده فهو مما يُنتظر حدوثه ووجوده.

وبرغم أنه لا يُشترط لإجراء الالتفات العدول عن القاعدة اللغوية، وإنما يُكتفى بالعدول عن نسق الخطاب، إلا أنه لا بد أن يظهر المتحدث عنه في صورتين زمنيتين تمثل إحداهما على الأقل انزياحًا عن القاعدة اللغوية لا يتطابق فيها زمن وجوده في الواقع والصورة الزمنية التي يبدو عليها في الخطاب ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ.﴾(3) يمثل قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ الزمن الأصل لحدوث النفخ في الصور بينما قوله عز وجل: ﴿فَفَزِعَ مَنْ فِي

---

(1) سبأ، الآية 51.

(2) سورة النحل، الاية 1.

(3) سورة النمل، الآية 87.

السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ يمثل انزياحًا عن القاعدة اللغوية لا يتطابق فيها زمن حدوث الفزع في الواقع (المستقبل) وصورته الزمنية في الخطاب (الماضي).

وفي المقابل ليست كل مخالفة في استعمال الصيغ والألفاظ الدالة على الزمن في الخطاب تُعدُّ التفاتًا ففي قوله تعالى: ﴿قَالُوا **لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ**.﴾[1] «لا يوجد التفات برغم إحالة ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ على المضي وإحالة ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ على الحضور أو الاستقبال؛ فالمتكلمين إنما يريدون نسبة علمين إلى المخاطَب أحدهما ماضٍ والآخر حاضر، فاختلف زمن العلمين باختلافهما.»[2]

ومن جهة أخرى فإن الالتفات قد يحدث باستعمال المشيرات المقامية لقوّة ارتباطها بآن التلفظ، لذلك فإن الانتقال منها وإليها يُعد نقلا للمتحدَّث عنه من الحاضر التخاطبي وإليه، ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (34) **يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ**.﴾[3] إن الإشارة باسم الإشارة للقريب «هذا» دون ذكر ما يدل على حكاية القول من نحو: «يقال لهم» يُعدُّ التفاتًا إلى الحاضر ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (41) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾[4] فتوجيه الخطاب المباشر إلى أيوب-عليه السلام- دون حكاية هذا القول يمثل التفاتًا إلى الحاضر.

---

(1) سورة هود، الآية 79.

(2) منى الجابري، المشيرات المقامية في القرآن، ص 471.

(3) سورة التوبة، الآيات: 34-35.

(4) سورة ص، الآيات: 41-42.

7- القوة التأثيرية للالتفات الزمني

يمكن القول ابتداءً إنّ ما أثبته القدماء من فوائد للالتفات بشكل عام تنطبق كذلك على الالتفات الزمني؛ إذ لا يمكننا بحال من الأحوال تجاهل كونه جزءًا من ظاهرة الالتفات بمعناه العام. وبناء على ذلك يمكن القول إن لّه فوائد يشترك فيها مع الالتفات بمعناه العام وفوائد أخرى يختص بها. ويمكن النظر في فوائده من ثلاث جهات هي:

7-1 الانزياح عن قاعدة النص

لقد دار القدماء في حديثهم عن أثر الالتفات في الخطاب في فلك أنه يتم بكسر قاعدة الخطاب وتحويل وجهته؛ ولذلك عدوه من شجاعة العربية[1]. ومن أساليب التفنن في الكلام[2]. ونكتفي في هذا المقام بعرض نص للزمخشري يتحدث فيه عن دور الالتفات في الحدث التخاطبي حيث قال: «وذلك على عادة العرب في افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه، ولأن الكلام إذا نُقِل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظًا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختص مواقعه بفوائد»[3] لقد تابع العديد من العلماء الزمخشري في نظرته هذه ومنهم: السكاكي[4]، والزملكاني[5]، والزركشي[6]، والسيوطي[7]، وابن

---

(1) يُنظر: ابن جني، الخصائص، ص 360/2، وابن الأثير، (ضياء الدين)، المثل السائر، ص135/2، وك ن، الجامع الكبير، 98، 102، والعلوي، (يحيى بن حمزة)، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق التنزيل، ص131/2، ونجم الدين ابن الأثير، جوهر الكنز، ص118.

(2) يُنظر: الزمخشري، (أبو القاسم محمود بن عمر)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، 56/1، وابن الزملكاني، (كمال الدين عبد الواحد)، التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن، 174.

(3) الكشاف، 56/1.

(4) يُنظر: مفتاح العلوم، ص 200 201.

(5) يُنظر: التبيان، ص 174.

(6) يُنظر: البرهان، 325/3-330.

(7) يُنظر: الإتقان، 155/2-159.

يعقوب المغربي[1]. وإذا ما تأملنا النص السابق نجد قوله: «وذلك على عادة العرب في افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه»، وهذا يعلل سبب عدّه من شجاعة العربية إذ الشجاع هو الذي يملك القدرة على التصرف في المواقف كيفما يشاء، يقول ابن الأثير معللاً سبب عدّه من شجاعة العربية: «وإنما سُمي بذلك لأن الشجاعة هي الإقدام، وذلك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره، ويتورد ما لا يتورده سواه، وكذلك هذا الالتفات في الكلام.»[2]، وللعلوي قوله: «الرجل إذا كان شجاعًا فإنه يرد الموارد الصعبة، ويقتحم الورط العظيمة، حيث لا يردها غيره، ولا يقتحمها سواه.»[3] والذي يبدو جليًا أن الشجاعة تتحقق في الالتفات من جهة قدرته على الانحراف عن قاعدة الخطاب، مما يؤكد أن المخاطِب قد ملك زمام خطابه يوجهه الوجهة المناسبة.

ومن جهة أخرى يشير قول الزمخشري: «ولأن الكلام إذا نُقِل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظًا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد» إلى فائدة عامة من فوائد الالتفات في الخطاب ذلك أنه ليس غاية في حد ذاته وإنما هو وسيلة لغاية فهو يؤثر على المخاطَب ذهنيًا فينشط ذهنه ويجعله في يقظة تامة ويزيد من إدراكه، ويؤثر عليه نفسيًا فيدفع عنه السآمة والملل وتتحرك نفسه للإصغاء. ولعل هذا يعود إلى كونه يتوفر على عنصر مفاجأة المخاطَب بتغييره منحى الخطاب. إن قول الزمخشري هذا يؤكد وعيه «بنفسية المخاطَب وما يناسبها من أساليب تخاطبية، فالنفس الإنسانية – كما هو معلوم– تملُّ الرتابة وتنشط للانتقال والتنوّع في الحياة والتخاطب أسلوب من أساليب الحياة.»[4]

وفي النص عبارة هامة جدًا هي: «وقد تختص مواقعه بفوائد» تشير هذه العبارة إلى غزارة الأغراض التي يؤديها الالتفات في الخطاب لدرجة قال عنها ابن الأثير: «لا تحد بحد ولا تضبط بضابط لكن يُشار إلى مواضع منها ليُقاس

---

(1) يُنظر: شرح مواهب الفتاح، ص1/279–282.

(2) المثل السائر، ص 2/136.

(3) الطراز، ص 2/131.

(4) الجابري، منى، المشيرات المقامية في القرآن الكريم، ص 159.

عليها»[1] وقال أيضًا: «الفرض الموجب لاستعمال هذا النوع من الكلام لا يجري على وتيرة واحدة، وإنما هو مقصور على العناية بالمعنى المقصود، وذلك المعنى يتشعَّب شُعبًا كثيرة لا تنحصر. وإنما يؤتى بها على حسب المعنى الذي ترد فيه»[2].

إن كثرة المعاني التداولية للالتفات بوجه عام والالتفات الزمني بنحو خاص، لا يمنع من الخوض في دراسته وتأمل الخطابات التي يُستعمل فيها، لا لحصر الأغراض وتقنينها وإنما للتأكيد على دوره في العملية التخاطبية، والأثر الذي يُحدثه في المخاطَب، خاصة إذا ما تعلق الأمر بدراسته في خطاب يمثِّل قمة الفصاحة والبلاغة لا يجاريه خطاب آخر في قوّة تأثيره ودقته في استعمال الأساليب التخاطبية، ويظل الباب مفتوحًا لدراسات تتوالى للتنقيب عن درر أخرى لاستعمال هذا الأسلوب.

وسنحاول فيما سيأتي التأكيد على دوره في التأثير على المخاطَب من خلال تتبعه في الخطاب القرآني في ثلاثة نماذج هي: مشاهد القيامة، والقصص القرآني، وتذكير بني إسرائيل بتعذيب فرعون.

2-7 الانزياح عن القاعدة اللغوية

إن المخاطِب إذا ما وظَّف الألفاظ والأساليب بشكل دقيق في خطابه فإنه بذلك يوجهه الوجهة المناسبة، التي تتحقق بها أغراضه ومقاصده. وإذا ما سلك به مسلكًا عدوليًا في انتقاء الألفاظ واستعمال الأساليب زاده حمولة وطاقة في تأثيره على المخاطَب، وبرغم أنه لا يُشترط لإجراء الالتفات العدول عن القاعدة اللغوية في استعمال الأزمنة إلا أنه لا بُدَّ في الخطاب الذي يُجرى فيه الالتفات الزمني من أن يظهر الحدث أو جزء من أجزائه بصورتين زمنيتين مختلفتين (الملتفت بها، والملتفت عنها) تمثل إحداهما أو كلتاهما انزياحًا عن القاعدة اللغوية لا يتطابق فيها زمن حدوث الحدث في الواقع الخارجي والصورة الزمنية

---

(1) المثل السائر، 136/2.

(2) م.ن، ص136/2: 137.

التي يظهر عليها في الخطاب، وهو بذلك يُكسب الخطاب شحنة دلالية أكبر، ويزيد من قوّة تأثيره في المخاطَب.

3-7 تصوير المتحدّث عنه بصورتين زمنيتين

إن الالتفات الزمني يجعل المخاطَب أمام صورتين زمنيتين مختلفتين للمتحدَّث عنه، ولهذا تأثير أقوى في الخطاب من إظهاره بصورة زمنية واحدة فقط؛ إذ لكل صورة منهما خصوصيتها وأثرها، فإذا لم تحصر نظرتنا للالتفات على الصورة الزمنية الملتفت بها ونظرنا إلى الخطاب على أنه يصور المتحدث عنه بصورتين زمنيتين مختلفتين، لوجدنا أن الالتفات يُضفي على الخطاب شحنة دلالية أكبر ويزيده حمولة وطاقة في تأثيره على المخاطب فيما لو ظهر بصورة زمنية واحدة فقط.

8- الالتفات الزمني في مشاهد القيامة

تتعدد الزوايا التي تصوِّرها مشاهد القيامة، وما ترصده من صور في ذلك اليوم، وهي تلتقي في إثبات عظمته وتميّزه عن زمن الدنيا. وقد عُرضت هذه المشاهد بالأزمنة الثلاثة: المستقبل والحاضر والماضي، ويتم الالتفات في إطار هذه الأزمنة جميعها، فتارة تصور القيامة والبعث والنشور والجنة والنار أمرًا مستقبليًا أو وعدًا يُنتظر حدوثه، أومكذبًا بمجيئه، فإذا به يتحول بالالتفات الزمني إلى حاضر ماثل أمام المخاطَب بالقرآن، تنادي الشخوص، أوتحاور أو توبخ في خطاب مباشر على مرأى منه ومسمع، وتارة أخرى يتحول من مستقبل إلى مشهد قد تحقق وغدا صورة من صور الماضي المتحقق الكائن، الذي انقضى زمن التكذيب به، وانتهت مهلة انتظاره فأصدرت الأحكام بالعذاب أوالنعيم على شخوصها... إلخ. الأمر الذي يجعل المشهد قائمًا في ذات المخاطَب فيدركه بعقله وذهنه، ويتغلغل في نفسه ووجدانه مستشعرًا مافيه من رهبة وعظمة. وفي الحقيقة يحتل الالتفات الزمني في هذه المشاهد المساحة الأكبر والأبرز والأوسع انتشارًا من غيرها من المواضيع الأخرى في القرآن الكريم لكننا سنكتفي بعرض بعض النماذج منها للتأكيد على أثر الالتفات الزمني فيها. وإن كنا لا نستطيع

بعال من الأحوال أن نتكر أنه لكل صورة زمنية تأثيرها الخاص على المخاطب ولكل مشهد خصوصيته

8-1 مشهد عذاب الكانزين للأموال

يمثل هذا المشهد الالتفات الزمني من المستقبل إلى الحاضر وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ **فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** (34) **يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ**﴾[1]

تتحدث هذه الآيات عن عذاب سيحل بـ«الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ» الذين ﴿يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وذلك في صورتين زمنيتين مختلفتين، تتمثل الصورة الأولى بتبشيرهم بعذاب مستقبلي سيحل بهم يوم القيامة، وقد وُصِفَ هذا العذاب ابتداءً بأنه أليم. والألم هو «شدة الوجع»[2] أو هو «الوجع الشديد»[3]، وقد ذُكِرَ مبهمًا في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، ومن ثم فُصِّلَ في قوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ إن هذا الإيضاح بعد الإبهام يساهم في تصوير شدة هذا العذاب ذلك أنه يجعل المخاطَب أكثر استشرافًا لمعرفته فيستشعر عظمته وتتمكن صورته في نفسه.[4] وقد تم تصوير هذا العذاب بنحو مفصل ابتداءً بإحماء أداة التعذيب، ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا﴾ مرورًا بالمكان الذي تحمى فيه ﴿نَارِ جَهَنَّمَ﴾ و«التي هي أشد نار في الحرارة»[5]، وطريقة التعذيب المتمثلة بالكي «فَتُكْوَى بِهَا»، ومناطق التعذيب من الجسد ﴿جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾، وهي جهات «متفاوتة ومختلفة في

---

(1) سورة التوبة، الآيات 34: 35.

(2) الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، مادة «ألَمَ».

(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، مادة «ألَمَ».

(4) يُنظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص 56/3.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ص 179/10/6.

الإحساس بألم الكي فيحصل مع تعميم الكي إذاقته لأصناف من الآلام»[1] إنه حقًا عذاب أليم بكل ما تحمله كلمة أليم من شدة، حيث يتحول ما يتلذذون بجمعه في الدنيا إلى أداة من أدوات تعذيبهم، ومصدر للتعاسة والألم جامعًا بين العذاب الجسدي والعذاب النفسي، رُسمت صورته وشدته للمخاطَب بالقرآن بالزمن المستقبل، على أنه بشارة، مما يحمل في طياته تهديدًا ووعيدًا لهذا الكنز الدنيوي بطريقة التفصيل ويجعل المخاطَب بالقرآن يُدركه من جميع زواياه فيستشعر شدته ومدى عظمته، وبينما هو كذلك إذا به يجد نفسه في قلب الحدث بالالتفات الزمني من المستقبل إلى الحاضر، بتوجيه الخطاب في قوله عز وجل: ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ إن توجيه الخطاب إلى الشخوص يحوّل المشهد المستقبلي إلى حاضر ماثل في حضرة المخاطَب بالقرآن، ولو جيء بـ«فيقال لهم» لظل الحديث عنه مستقبلاً، مما يبقيه في حيز الوعد، بينما حذف القول هنا وعرضه في مشهد حي، يجعل العذاب النفسي بالتوبيخ والمواجهة أشد وقعًا في النفس وأشد تأثيرًا. وكأنه على مسمع من المخاطَب بالقرآن وفي حضرته، وفي الحقيقة إن المشار إليه في صورة الزمن الحاضر في قوله تعالى: ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾، هو نفسه الموصوف بالزمن المستقبل في قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ فلا يوجد فيما أحسب- فاصل زمني بين حدوث الكي والتوبيخ بالإشارة إلى أداة الكي إذ يترافق العذاب الجسدي والعذاب النفسي، لكن برغم ذلك أُظهر أحدهما بالزمن المستقبل وأُظهر الآخر بالزمن الحاضر، وذلك يجعل المخاطَب أمام أمرين التهديد بالعذاب، وتصوير هذا العذاب ماثلا أمامه ليتخيله، بالإضافة إلى أنه يجعل مشهد العذاب يترقى في ظهور شدته. فإذا كان ظهوره بصورة التهديد والوعيد شديدًا فإن حضوره أشد وقعًا. إن الإشارة باسم الإشارة للقريب إلى العذاب، يجعل المخاطب في حال مفاجأة، فيزداد هذا العذاب رهبة في نفسه، بعد أن أدركه بكل تفاصيله في صورته المستقبلية.

---

(1) م.ن، ص.ن.

وفي هذا المشهد تحول عجيب فقد كانت الشخوص يُروى ويُقص عنها بالغائب في الصورة الأولى وكان الزمن دنيويًا والقيامة وعدًا، بينما في الصورة الثانية تغير كل شيء فقد غدوا مخاطبين وتحوّلت الصورة الزمنية إلى الآخرة، وغدت الدنيا ماضية والقيامة حاضرة. وبذلك يبدو العذاب بصورته العظيمة الهائلة، وهي كذلك رسالة إلى الأحبار والرهبان والمنغمسين في جمع الذهب والفضة والأموال. توقظهم من غفلتهم فتقدم لهم العذاب في صورتين زمنيتن. صورة تهددهم وتتوعدهم وتفصل لهم العذاب تفصيلاً، وصورة أخرى تنقلهم إلى مشهدهم وهم في العذاب الموعود يخاطبون خطاب الحاضر علّهم يستشعرون شدة المواجهة ويرتدعون عما يقومون به.

2-8 مشهد حشر المشركين وشركائهم.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (28) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾(1)

تصور هذه الآيات مشهدًا من مشاهد القيامة يتم فيه الجمع بين المشركين وشركائهم في لقاء مختلف عن لقاءاتهم الدنيوية. ويبدو مشهد «الحشر» في البداية مستقبلاً. ليصوّر للمخاطَب بالقرآن الجو العام للمشهد فيدرك أن هذا المستقبل يمثل تهديدًا ووعيدًا، بما فيه من جمع الناس ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾. ومن ثم توجيه الخطاب إلى المشركين على نحو خاص ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾. وهنا تُحبس الأنفاس لعظمة هذا المشهد ويُستشعر مدى شدته وهوله عليهم. ويُتشوق لمعرفة مالذي سيحل بهم بعد هذا الأمر الذي سيوجّه إليهم. ويتم الالتفات من المستقبل إلى الماضي ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ فنجد فاء التعقيب، الدالة على حصول التزيل عقب الأمر باللبث. وبرغم أن التزيل يأتي عقب الحشر والأمر باللبث، إلا إنه تم تصويره بالماضي، وإذا ما عرفنا المقصود بالتزيّل أدركنا سرًا من أسرار هذا الالتفات الزمني من المستقبل إلى الماضي. فهو

(1) سورة يونس. الآيات 28: 29.

يشير إلى شدة التفرّق وانتهاء العلاقات أظهر في صورة الماضي الدال على الانقضاء يقول ابن عاشور في ذلك: «فزيَّل فعل للمبالغة من الزَّيْل مثل فرَّق من فَرَقَ، والمعنى وقع بينهم تفرّق قوي بحيث انقطعت جميع الوصل التي كانت بينهم.»[1] والذي يبدو أنه قد جيء بالتزيل بالماضي، ليدرك المخاطَب بالقرآن أن أواصر الموالاة التي بلغت في الدنيا إلى درجة الشرك بالله- سبحانه وتعالى- ستكون في حيِّز المنقضي المنتهي، وستنقطع بشدة، وتتحول إلى عداوة وتبرؤ، مباشرة بعد أن يؤمروا بأن يلزموا مكانهم، ويجمعوا في مكان واحد، إنه تصوير دقيق لتقطع الأواصر وضلال عقيدة الشرك وخسارة المشركين يوم القيامة، جيء به على هيئة التفات زمني ليستشعر المخاطَب سرعة حدوثه ويدرك التحوّل السريع في العلاقات، إنه انقلاب وتغيير في زمن المشهد المعروض من المستقبل إلى الماضي، وهو في الوقت نفسه تحوّل في علاقات الشخوص يجعل المخاطَب يدركها على مستوى الموضوع وعلى مستوى الخطاب.

3-8 مشهد دعوة المشركين لشركائهم.

قال تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا** (52) **وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا**.﴾[2] تصور هذه الآيات مشهد المشركين عندما يُطلب منهم دعوة شركائهم، الذين يفنون حياتهم الدنيوية في عبادتهم، فيسرعون لدعوتهم علهم يجدون نصرة أو سندًا أو مغيثًا من العذاب. ويتحوّل المشهد من المستقبل إلى الماضي مما يصوّر سرعة امتثالهم للطلب، ويشير إلى حاجتهم الماسة للنصرة، وهو في الوقت نفسه يعطي المشهد حركة سريعة بالتحقق والانقضاء، ويؤكد أن تحول الزمن سيرافقه انتهاء وانقضاء لعلاقتهم بشركائهم وهنا يدرك المخاطَب بالقرآن أن أمر القيامة سيكون متحققًا وستقص أحداثه، وستطوى هذه العلاقة كما يطوى الزمن ويطوى معه المشهد بشكل سريع الانقضاء.

---

(1) التحرير والتنوير ص151/11/6.

(2) سورة الكهف، الآيات 52: 53.

4-8 مشهد عرض الكفار على النار

يقول الله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ.﴾(1)

تصور هذه الآية الكريمة مشهد الكفار في لقائهم بالنار التي تمثل موقع تعذيبهم الأبدي، وقد تحرك المشهد في إطار الأزمنة الثلاثة: الماضي، والحاضر، والمستقبل، من خلال التفاتين زمنيين متعاقبين على النحو الآتي:

1- الالتفات من المستقبل إلى الحاضر

وذلك في قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ ـــــ ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾.

يبدو المشهد في البداية مستقبلاً وهو يتحدَّث عن عرض سيكون يوم القيامة، ولكن فجأة يتحول إلى حاضر بالالتفات من المستقبل إلى الحاضر من خلال توجيه الخطاب فيه إلى الشخوص (الكفار).

2- الالتفات من الحاضر إلى الماضي

ويمثله قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ ـــــ ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، عقب توجيه الخطاب المباشر إلى الشخوص بالاستفهام عن العذاب، أوالنار الحاضرة أمامهم يتم الالتفات من الحاضر إلى الماضي حيث نجد الإجابة عن الاستفهام قد عُرِضَت بالماضي من خلال حكاية قولهم بـ«قَالُوا»، وما قيل لهم بعد ذلك «قَالَ».

إن المخاطب بالقرآن يتوقع أن العرض الذي يصوره قوله تعالى في بداية المشهد: «وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ» سيكون مروِّعًا وشديدًا على الكفار الذين يقضون حياتهم الدنيوية في إنكاره ونفيه، وهو يدرك أن النار التي سيُعرضون عليها ستكون مصدر عذابهم مما يجعله في حال تطلع واستشراف لمعرفة ما الذي سيحل بهم،وإذا به يتفاجأ بحضور المشهد وترقيه في شدته من

---

(1) سورة الأحقاف، الآية 34.

خلال مواجهة الشخوص باستفهام توبيخي عن النار، أو عن العذاب فيها، توحي الإشارة بالقريب إليه بشدة حضوره، إلى جانب وصفه بأنه «الحق»، و«الحق في الأصل: الثبوت والشيء الثابت يقال: حق الأمر يحق حقًّا، فهو حق: أي ثبت واستقر»[1] إن الكافر بعد أن كان المشار إليه بأنه الحق محورًا من محاور كفره، أفنى عمره في نفي كينونته،ها هو الآن يشار إليه بالقريب، ويتم حضوره بشكل سريع ومفاجئ، بالالتفات الزمني بالحضور من خلال توجيه الخطاب، حيث «يبدأ المشهد بحكاية أو بمقدمة لحكاية: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ وبينما السامع في انتظار وصف ما سيحدث، إذا المشهد يشخص بذاته وإذا الحوار قائم في المشهد المعروض﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾»[2] وكأن الجاني قد استُحضِر من رحم المستقبل ليُواجَه بجنايته، فيزداد المشهد رهبة في نفس المخاطب بالقرآن، يعايشه بكل تفاصيله، وكأنه على مسمع منهم لحظة توجيه الخطاب إليهم، فتتوق نفسه إلى معرفة ردِّهم عن الاستفهام الموجَّه إليهم فإذا به يتفاجأ بتحوّل المشهد الحاضر إلى مشهد متحقق انقضت أحداثه وحكم على شخوصه ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، وكأنها نهاية من شدة تحققها قد غدت حدثًا يُروى كما تُروى نهاية القصص، إن المضي هنا يجعل المشهد في تسارع وانقضاء، وهو يثبت سرعة اعترافهم وإقرارهم مع تأكيد اعترافهم بوجوده بالقسم وقد جاء ردهم سريعًا لأنهم لا يملكون غيره ولا مجال لهم للتفكير أو للإنكار، خاصة أن المستفهم عنه ماثل أمامهم. يتبع هذا سرعة في الحكم عليهم، فيغدو العذاب واقعًا متحققًا مقطوعًا بوجوده، ويُطوى مشهدهم، كما تُطوى نهايات القصص فيتحولون إلى ماضٍ يُروى ويُقص للعبرة وغُيبوا وغُيِّب زمن حضورهم بعد أن كانوا مخاطبين.

5-8 مشهد رؤية الكفار للوعد

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (25) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ

---

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، مادة حقق.

(2) سيد قطب، في ظلال القرآن، ص 3275/6.

عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (26) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ.﴾[1]

تبين هذه الآيات علاقة المكذبين بالوعد» أو «يوم القيامة». وقد تم تصوير هذه العلاقة بصورتين زمنيتين مختلفتين، تم الانتقال من إحداهما إلى الأخرى بالالتفات الزمني من المستقبل إلى الماضي. وتتجلى الصورة الأولى في زمن الدنيا وفي كون الوعد (يوم القيامة) مستقبلاً لم يحدث بعد، بل لم يعين زمن حدوثه، وهذا الحدوث إنما هو في علم الغيب مختص بالله - عز وجل- لا يعلمه إلا هو ولا يحدده غيره.

وتبدو علاقة الشخوص بيوم القيامة، قائمة على استبعاد حدوثه والتكذيب المستمر به، والسخرية ممن يرى خلاف ذلك، حيث يصوِّر الفعل المضارع «يَقُولُونَ» مزاولتهم للتكذيب مرارًا وتكرارًا، بينما يؤكد قوله تعالى حكاية عنهم في خطابهم للمؤمنين: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ شدة إنكارهم لحدوثه التي وصلت إلى درجة السخرية من المؤمنين به وممن يخبرهم بمجيئه. وهنا ترتسم في ذهن المخاطب بالقرآن صورة أولى عنهم وعن عقيدتهم القائمة على النفي القاطع لحدوث يوم القيامة. ويأتيهم رد دنيوي على استفهامهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾؟. يخاطب عقولهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ فعلم مجيئه مختص بالله - عز وجل- الذي لا جرأة على علمه، وما الرسول إلا ﴿نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾، يبين لهم طريق الحق ولا علم له بموعد حدوثه.

ويُسدل الستار على الزمن الدنيوي الذي ظهر فيه يوم القيامة مستقبلاً ووعدًا لا يعلم حدوثه إلا الله عز وجل، ليُنتقل إلى صورة أخرى تحوَّل الوعد معها إلى كائن حادث متحقق الوقوع، وتحوَّلت الدنيا إلى ماضٍ انقضى وجوده، وذلك في لمحة التفاتة زمنية في الخطاب تبدل بها الزمن وتغيرت معها علاقة المكذِّب بالمكذَّب به، لمجرد أنهم رأوه «زلفة» شديد القرب منهم، مقبلاً عليهم. وهنا تم تصوير لحظة اللقاء الأولى بينهم وبين الوعد (يوم القيامة)، بالالتفات من المستقبل إلى الماضي، برغم أنه في الواقع مازال في حيِّز الوعد، مما يرصد

---

(1) سورة الملك، الآيات 25: 27.

للمخاطَب بالقرآن ردة فعلهم بعد معاينته، وما حلَّ بهم من غم وهم وكرب وضيق...إلخ من المشاعر النفسية التي بدت آثارها على ملامح وجوههم التي سيئت، فقد «بان عليها الكآبة وغشيها الكسوف والقترة وكلحوا كما يكون وجه من يُقاد إلى القتل أويُعرض على بعض العذاب.»[1] وهنا يُقص جانب آخر من جوانب عذابهم النفسي. ﴿وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ﴾، وهو يمثل الشق الآخر للإجابة عن استفهامهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. فالإجابة اقتضت طي زمن الدنيا ورصد ردة فعلهم بعد معاينته. والإشارة إليه باسم الإشارة للقريب تهكمًا بهم وتوبيخًا لهم. وبذلك تم الالتفات بالماضي لإظهار نهاية كفرهم وانقضاء سخريتهم، في صورة تماهى فيها الشخوص في الزمن، كما تماهى عنهم كفرهم وعنادهم وسخريتهم، وكأنهم غدوا حديثًا يُروى أو قصة تُعرض نهايتها، مبالغة في تأكيد الحدوث التي وصلت إلى درجة التحقق والوقوع. وهي رسالة للمخاطَب بالقرآن بأن الإصرار على الكفر والتكذيب بيوم القيامة لا يدوم وإنما هو مرهون بزمن الدنيا ومصيره للانتهاء والانقضاء والزوال ليحل الندم والحسرة محله. فهؤلاء المكذبين قد تغيَّر حالهم وانقلبت سخريتهم من المؤمنين وبالاً عليهم، وواجهوا المكذَّب به كائنًا، مشارًا إليه باسم الإشارة للقريب فلم يملكوا أدنى حيلة على ردِّه أو قدرة على مواجهته، أو حتى الهرب منه، وقد حدث ذلك بنحو سريع ومفاجئ فكانوا في حيِّز المفروغ منه لا محالة. وهنا يستشعر المخاطَب بالقرآن مدى خسارتهم وعمق ضلالهم وكأنهم قصة من الماضي تُروى للعبرة والموعظة، فيعتبر في نفسه، ويتعض، إن أعمل عقله ووجدانه، فلا تكون نهايته كنهايتهم إن كان مكذبًا ويصبر على كفرهم إن كان مؤمنًا.

وإذا ما نظرنا في هذه الآيات من جهة أنها ترسم صورتين زمنيتين لعلاقة المكذبين بيوم القيامة يستبعدون حدوثه في الصورة الأولى، وقد رأوه زلفة في الثانية، فيقف المخاطَب بالقرآن على كفرهم وعنادهم واستفهامهم الساخر المتكرر في الأولى، ونتيجة هذا الكفر في الصورة الثانية مع إجابة استفهامهم

---

(1) الزمخشري، الكشاف، ص4/587.

متحققة ماثلة أمامهم مؤثرة في نفوسهم لدرجة أن ظهر تأثيرها على وجوههم، مصحوبة بإشارة إليه، فيدرك أن هذا التكذيب لن يدوم طويلاً وأن يوم القيامة سيغدو حاصلاً، وعقاب كفرهم آت لا محالة فينفر من الكفر الذي في الصورة الأولى، ويتغض من حالهم المصور في الثانية.

وبعد هذه الجولة السريعة في نماذج من مشاهد القيامة وبعد هذا العرض الموجز لمشاهد القيامة يمكن القول: إن مشاهد القيامة تقوم في الأساس على عنصرين أحدهما المفاجأة وقد أسهم الالتفات الزمني في تصوير ذلك،وجعل المخاطَب يعيش جو المفاجأة ويلمس سرعة التحول الزمني؛ فهو يُحدث مفاجأة للمخاطب بالقرآن بتغيير الصورة الزمنية لمشاهدها. وتغيير الصورة المرسومة لشخوصها من جهة انقلاب أحوالهم وتغير مشاعرهم وثوابتهم الاعتقادية...إلخ. وهذا يجعل المخاطَب بالقرآن يُدرك أن الدنيا ستغدو ماضية والقيامة حاضرة أومتحققة، بشكل مفاجئ.

وكما إن مشاهد القيامة قائمة على المفاجأة فهي كذلك تعتمد على السرعة في التحول وقد ساهم الالتفات الزمني في رسم هذه الصورة ليوم القيامة وأثبت للمخاطَب القدرة الخارقة على التحول الزمني، من وعد إلى حاضر أو إلى ماض، فتغييره سهل على الله -عز وجل- وأن يوم القيامة مؤكد الحدوث،من خلال تحول زمني سريع ومفاجئ فينشط لذلك ذهن المخاطَب وتتفاجأ به نفسه،ويعيشه على مستوى الحدث التخاطبي. وهذا يؤكد له فكرة إنه كما يتم تحويل الزمن بسهولة ويسر في الحدث التخاطبي فإنه سيكون كذلك في الواقع، بانقلاب زمني خاطف تحار له العقول وتخفق له القلوب.

أضف إلى ذلك أن الحديث عن يوم القيامة بما فيه من مشاهد على أنها شيء مستقبلي ووعد سيتحقق يُعد أمرًا طبيعيًا لكن ظهوره بأكثر من صورة زمنيًا يجعل المخاطَب في حال يقظة ذهنية وشعورية، إذ يحمله على التفكر فيه وهو مستقبل أو هو حاضر بكل تفاصيله وشخوصه، أوعندما يكون متحققًا تروى أحداثه.

إن الالتفات الزمني في هذه المشاهد، يمثل تحولاً في بنية الخطاب، تتناسب مع كون القيامة تمثل تحولاً للزمن وللحياة وهو بذلك يقدم صورة مصغرة

للانقلاب الزمني على أرض الواقع من الدنيا إلى الآخرة.

ومن جهة أخرى فإن الالتفات الزمني يصور المكذبين والكفار والمشركين في علاقتهم بيوم القيامة في صورتين زمنيتين مختلفتين أو في ثلاث صور زمنية، فيعمل على الجمع بين حالهم وهم يكذبون به، أويعاينوه، ويواجهونه، أويواجهون ما فيه من شدة، أو قد نالوا جزاءهم على تكذيبهم. الأمر الذي يجعله يستشعر ما يعانونه من مشاعر عندما تتبدل الأزمنة ويعيشون في قلب ما استبعدوه، مما يجعله أشد رهبة في نفسه.

9- الالتفات الزمني في القصص القرآني

تعتمد القصة على الزمن، الذي يحتل مكانًا ملحوظًا «في سير الأحداث القصصية وفي توضيحها وقوة تأثيرها»[1]. وبرغم أن زمن القصة يكون ماضيًا في الأصل إلا إنه يتم الالتفات الزمني في بعض المشاهد القصصية القرآنية من الماضي إلى المستقبل، أو إلى الحاضر، ولهذا أثره على المخاطب بالقرآن وهذا ما توضحه النماذج الآتية:

9-1 قصة نوح وصناعته للفلك

في قص قصة نوح - عليه السلام- نجد قوله عز وجل: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (37) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ.﴾[2] في هذه الآيات تم الالتفات الزمني من الماضي في قوله عز وجل: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[3] إلى الحاضر في قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ

---

(1) عبد الفتاح لاشين، من أسرار التعبير في القرآن الكريم «بناء التراكيب»، ص209.

(2) سورة هود، الآيات 36: 38.

(3) س.ن، الآية 36.

مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ.﴾[1] وقد يبدو للوهلة الأولى أنه قد تم الالتفات بتوجيه الخطاب المباشر في قوله عز وجل: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ ولكن الحقيقة أن هذه الآية تابعة لما قبلها من جهة أنها داخلة فيما أوحي إلى نوح في قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ﴾ إذ توجيه الخطاب إليه إنما هو تتمة للخطاب المحكي عنه في قوله تعال: ﴿**وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ.**﴾ وهذا يعني أن الالتفات في هذه الآيات إنما هو من الماضي إلى الحاضر، في قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ.﴾[2] وهو يشير إلى سرعة تحول نوح عليه السلام من الأمر الموجه إليه إلى معالجة هذا الأمر وتنفيذه وسرعة امتثاله لأمر الله عزوجل، وهو في الوقت نفسه يستحضر أمام المخاطَب بالقرآن، حال نوح وهو يصنع الفلك في بيئة صحراوية وسخرية القوم المتكررة منه مما يؤكده استعمال «كلما» الدال على التكرار، فيتخيل الموقف ماثلاً أمامه ويستشعر مدى شدته على نوح، ومدى غرابته على القوم، الأمر الذي يجعل المشهد أكثر رسوخًا في ذهن المخاطَب بالقرآن.

9-2 قصة إبراهيم مع الملائكة

قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (75) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ.**﴾[3] تصور هذه الآيات ثلاث صفات متصف بها سيدنا إبراهيم -عليه السلام- وهي كونه حليمًا أواهًا منيبًا، وُصِفَ بها بدون عاطف بينها، وأكدها المشهد المعروض، من خلال ردة فعله عليه السلام، و ساهم

---

(1) س.ن الآيات 38.

(2) س.ن. الآيات 38.

(3) س. ن. الآيات 74 : 76.

الالتفات الزمني في تصويرها، ذلك أن التحول السريع في سير الأحداث وفي موقف إبراهيم -عليه السلام- تم تصويره بالالتفات الزمني من الماضي ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾، إلى الحاضر ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾. فهو عقب اطمئنان نفسه بعد أن كان خائفًا من الملائكة الذين قدم الطعام إليهم فلم يأكلوا منه، ومجيء بشرى الولد إليه، تحول مباشرة إلى المجادلة بشأن عذاب قوم لوط، إنه تحوّل سريع على مستوى الحدث وعلى مستوى القص، حيث تتغير هيئة إبراهيم، وتتغير معه طريقة عرض الحدث، مما يجعل المخاطَب بالقرآن يعيش سرعة التحول هذه ويدرك مدى حلمه وتأوهه، وإنابته، فالمتصف بهذه الصفات يسأل الله -عز وجل- تأخير العذاب عن القوم، والحليم هو الذي يتأنّى إذا ما أراد إيقاع عقوبة بأحد، ويأتيه الرد على هذه المجادلة بالنداء المباشر ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾[1] إن توجيه الخطاب المباشر إلى إبراهيم وكأنه حاضر أمام المخاطَب بالقرآن، يجعله يستحضر مشهد المجادلة تحدث أمامه فيدرك طبيعة هذه الشخصية الفذة، المنشغلة بشأن غيرها، ويدرك تكريم الله -سبحانه وتعالى- له، بتوجيه الخطاب المباشر إليه.

3-9 نهاية فرعون مع أتباعه

يقول الله -سبحانه وتعالى- في الحديث عن نهاية فرعون يوم القيامة: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (96) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (97) **يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ**﴾[2] إن هذه الآيات تربط الماضي المتمثل بقصة موسى مع فرعون وملئه وموقفهم من دعوته،بالمستقبل المتمثل في ورود فرعون وملئه في النار، وتصور هذه الآيات أن الملأ قد طغت عليهم تبعيتهم لفرعون فآثروا اتباعه على اتباع موسى الذي جاءهم بالآيات، والسلطان المبين وهو «الحجة العقلية أوالتأييد

---

(1) س ن، الآيات 74 : 76.

(2) س ن، الآيات 96 : 98.

الإلهي»[1]، لكنهم برغم ذلك أعرضوا واتبعوا أمر فرعون الذي وصفه الله -عز وجل- بانتفاء الرشد عنه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾. يقول ابن عاشور: «وإظهار اسم فرعون في المرة الثانية دون الضمير والمرة الثالثة للتشهير بهم والإعلان بذمه وهو انتفاء الرشد عن أمره.»[2] وهنا تتوق نفس المخاطب بالقرآن ويتشوق إلى معرفة نتيجة هذا الاتباع إذ ترك الخبر بالوقوف عند حدٍّ معرفة ما جرى في الماضي لا يفي بالغرض ولا يقدم صورة كاملة لهذا الاتباع من جهة نتيجته وما جنوه منه، ويجعل النفس في حال ترقب وتشوق لمعرفة ما سيحل بالقوم من جراء هذا الاتباع خاصة أنه قد تم ذمه بِبُعده عن الرشد. وهنا يُنقل القص إلى المستقبل، «يوم القيامة» في قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ حيث سيقدمهم في النار ويتبعونه إليها. والملاحظ أن هذه النتيجة جاءت بصورتين زمنيتين هما المستقبل في قوله: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ والماضي حيث قال: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ ففي الصورة الزمنية الأولى تم تحديد الملابسات الزمنية للحصول على النتيجة المتمثلة في يوم القيامة وذلك بالالتفات من الماضي إلى المستقبل. وفي الحقيقة إن الفعل المضارع يدل على الحال أوالاستقبال، لكن وجود التركيب الإضافي «يوم القيامة» يرشح الدلالة على المستقبل، والملاحظ عدم استعمال «السين» نحو: سيقدم، أو «سوف» أي سوف يقدم، إذ استعمالهما يعطي المشهد فسحة زمنية أطول في الحدوث، بعكس الخلو منهما. كما إنهما تُظهرانه بصورة الوعد أوبتعبير أدق الوعيد، وهذا يتناسب مع ما تظهره الصورة الثانية التي تم بها الالتفات من المستقبل إلى الماضي لتتحدد النهاية بصورة حتمية كائنة مفروغًا منها. وليست مجرد وعيد وتهديد يقول الزمخشري: «فإن قلت: هلا قيل: يقدم قومه فيوردهم؟، ولم جيء بلفظ الماضي؟. قلت: لأن الماضي يدل على أمر موجود مقطوع به.»[3] وفي الحقيقة إن المخاطب بالقرآن ليس من شخوصها، ولا يعنيه

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ص6/12/155.

(2) م.ن، ص.ن.

(3) الكشاف، ص2/402.

التهديد بالنتيجة وإنما يهمه تحققها لهم، وهذا المضي يعطيها حتمية مما يجعله في رهبة فيتعظ ويعتبر من نهايتهم. وقد ورد في البحر المحيط: «عدل عن فيوردهم إلى فأوردهم؛ لتحقق وقوعه لا محالة فكأنه قد وقع، ولما في ذلك من الإرهاب والتخويف.»[1]

9-4 شكوى أيوب لربه

ومن الالتفات الزمني في القصص القرآني قوله تعالى في قصة أيوب عليه السلام: ﴿**وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ** (41) **ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ** (42) **وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ** (43) **وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ.**﴾[2] ففي هذه الآيات تم الالتفات من الماضي إلى الحاضر، في قوله عز وجل: ﴿**وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ** (41) **ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ**﴾[3] ومن الحاضر إلى الماضي، وذلك في قوله تعالى: ﴿**ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ** (42) **وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ.**﴾[4] ومن الماضي إلى الحاضر حيث قال: ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ** (43) **وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ**﴾[5] ومن الحاضر إلى الماضي في قوله: ﴿**وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ.**﴾[6] إن كثرة الالتفاتات في هذه الآيات تجعل المقصوص عليه القصة في يقظة تامة ونشاط ذهني متوقد، ففي البداية نجد حكاية دعاء أيوب -عليه السلام- وتوجهه إلى ربه لإنهاء معاناته فيتشوق المخاطَب بالقرآن ويتطلع

---

(1) أبو حيان، ص205/6.

(2) سورة ص، الآيات 41: 44.

(3) س.ن، الآيات 41-42.

(4) س.ن، الآيات 42-43.

(5) س.ن، الآيات 43-44.

(6) س.ن، الآية 44.

إلى معرفة الرد على هذا الدعاء، وتأتي الاستجابة بشكل مباشر وسريع في صورة خطاب مباشر له بدون واسطة القص من نحو «قلنا له» مع ما يحمله هذا الخطاب من إكرام ويسمع المقصوص عليه القصة بنفسه الرد على الدعاء فيستشعر رونق هذه الإجابة وجمال الترابط بين النداء والإجابة المباشرة، بما تحمله من سرعة وتحول. وكأن هذه الآية تؤكد ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ.﴾[1] ويأتي تمهيد آخر لإكرام أيوب -عليه السلام- على صبره، وذلك بقص جانب من جوانب هذا الإكرام في قوله عز وجل: ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ وبعد أن عرضت الجائزة جاء التكريم بصورة الخطاب المباشر ﴿**وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ**﴾ فينتقل المقصوص عليه القصة (المخاطَب بالقرآن) إلى قلب الحدث ليعايش لحظة التكريم تحدث أمامه. ومن ثم يقص سبب هذا الإكرام لهذا العبد بالماضي ﴿**إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾ فيجعل المخاطب بالقرآن يتأمل نهاية القصة. إنها تقنية من تقنيات القص القرآني تجعل المقصوص عليه القصة وكأنه مع شخوصها وذلك بالانتقات الزمني وتغيير مجرى القص في اللحظة المناسبة من الحدث.

وبعد هذا الاستعراض لنماذج من القصص القرآني يمكن القول: أن الالتفات الزمني في القصص القرآني قد ساهم في تصوير سرعة الأحداث في وقوعها أوالتسارع في التحول من حدث إلى آخر تالٍ له. وهو يثير مخيلة المقصوص عليه القصة فيقف برهة إزاء حدث ما من أحداثها ليتأمله فتنطبع صورته في مخيلته وذهنه مما يجعله يشارك الشخوص في تلقي الخطاب وكأنه معهم في قلب الحدث. وهو كذلك يعمل على ربط الحدث بنتيجته، ويعطيها حتمية الوقوع فيثبتها ويؤكدها.

10- الالتفات في تذكير بني إسرائيل بتعذيب فرعون لهم.

استُعمِل الالتفات الزمني في خطاب بني إسرائيل بتذكيرهم بما كان

---

(1) سورة الأعراف. من الآية 56.

يضطهدهم فرعون به. وذلك في صورتين زمنيتين: فقد قُص في البداية على أنه حدث ماض ومن ثم تم تحويله إلى حاضر متساوق مع زمن إجراء الخطاب. وذلك بالالتفات الزمني من الماضي إلى الحاضر في قوله تعالى:

- ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ.﴾(1)
- ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ.﴾(2)
- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ.﴾(3)

والملاحظ أن المخاطبين في آية البقرة إنما هم بنو إسرائيل في زمن محمد -ﷺ- وهم في آية إبراهيم في زمن موسى. والآية حكاية لخطابه -عليه السلام- لهم، بينما في آية الأعراف اختلف العلماء في تحديدهم فيما إذا كان «تتمة كلام موسى» فيكون الخطاب موجهًا إلى بني إسرائيل في عصره. أوهو خطاب من الله - عز وجل- لبني إسرائيل المعاصرين لمحمد- ﷺ- وقد عرض ابن عاشور لهذا الخلاف في تفسيره التحرير والتنوير.(4) وفي كلا الحالين فإن الخطاب إنما هو تذكير للمخاطبين بحدث ماض كان يمارسه فرعون عليهم، أوعلى آبائهم على اعتبار أن الأبناء إنما هم امتداد للآباء فنجاة الآباء إنما هي كذلك نجاة للأبناء، وبرغم أن الإنجاء قد تم في الماضي، إلا إنه قد عُرض بصورتين زمنيتين إحداهما ماضية، متمثلة في فعل الإنجاء ﴿نَجَّيْنَاكُمْ﴾ و﴿أَنْجَيْنَاكُمْ﴾ والثانية بالمضارع الدال على الحضور في تصوير ما تم الإنجاء منه «يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ»، وفي تفصيل المقصود به، ولكل صورة منهما تأثيرها على المخاطب: ففي الصورة الزمنية الأولى تم تصوير إنقاذ الإنجاء

---

(1) سورة البقرة، الآية 49.

(2) سورة الأعراف، الآية 141.

(3) سورة إبراهيم، الآية 6.

(4) يُنظر: ص 5/9/84-85.

بالماضي الدال على التحقق والانقضاء مما يجعل المخاطَب يستشعر الفضل والمنة عليه، وقدرة الله على إنفاذ الحكم، أما في الصورة الثانية. فإن الالتفات الزمني من الماضي إلى الحاضر في ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾، يضاعف شعوره بالفضل والمنة عليه عندما يستحضر ما كان يفعله فرعون، يحدث أمامه لحظة إجراء الخطاب، ومن جهة أخرى فإن دلالة المضارعة في ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ تشير إلى تكرار السوم من فرعون لهم. والإنجاء من العذاب المتكرر إنما هو أمر عظيم، هذا إلى جانب الدلالة المعجمية لـ«سَوَمَ» يقول السمين الحلبي: «قيل أصل السوم الدوام. ومنه: سائمة الغنم لمداومتها الرعي، والمعنى: يديمون تعذيبكم.»[1]، وهو يشير إلى جانب المداومة، الشدة، يقول البقاعي في ذلك: «﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ سمَّاه بذلك لأنه أشد البلاء على النفس لما فيه من استحقارها، من السوم، وهو تعذيب يتهاون المعذِّب، والسوم ما يشتد تنكُّر النفس له، وتكرُّهها.»[2]، وقد تم تفصيله بما يوحي بالشدة أيضًا في «يُذَبِّحُونَ» و«يُقَتِّلُونَ»، ومن جهة أخرى يمكن القول: إن إثارة مخيلة المخاطَب باستحضار السوم بالعذاب يحدث أمامه بشدته وتكراره يجعله يشعر بالألم تجاهه، ويستشعر في الوقت نفسه ما رسمته الصورة الأولى من فضل الإنجاء منه فلا ينكره.

الخاتمة

تناول هذا البحث التأثير في المخاطَب بالالتفات الزمني في القرآن الكريم، وقد درس العديد من العلماء القدماء والمحدثين «الالتفات» بمعناه العام، ومن المحدثين من خصص دراسته في الالتفات في الخطاب القرآني، لكن لم توجد دراسة -في حدود علم الباحثة- اختصت بالالتفات الزمني في القرآن الكريم، الذي يمثّل ظاهرة تخاطبية بلاغية يتم فيها تصوير المتحدَّث عنه بصورتين زمنيتين مختلفتين وهو يعتمد على كسر رتابة الخطاب وتنويعه، بالانزياح عن صورة زمنية سابقة للمتحدَّث عنه، وتمثل إحدى الصورتين الزمنيتين انزياحًا عن

(1) الدر المصون، ص 1/219.

(2) نظم الدرر، ص 1/129-130.

القاعدة اللغوية، لا يتطابق فيها زمن حدوث الحدث وصورته الزمنية في الخطاب.

لقد دار القدماء في حديثهم عن الالتفات الزمني حول المخالفة في استعمال الصيغ الفعلية: الماضي والمضارع والأمر، وقد سار المحدثون على نهجهم، لكن- بحسب هذه الدراسة- لا يقتصر الالتفات الزمني على ذلك وإنما يتعدّاه إلى إظهار المتحدَّث عنه بصورتين زمنيتين مختلفتين، وذلك بتتبع جميع العناصر الدالة على الزمن في الخطاب بما في ذلك الصيغ الفعلية والظروف والمشيرات المقامية.

أكد هذا المبحث أن للخطاب تأثيرًا على المخاطَب، وذلك من خلال دراسة خطاب منجز هو القرآن الكريم، وقد مثّل الالتفات الزمني أداة من أدوات هذا التأثير في المخاطَب من الناحية الذهنية أومن الناحية النفسية والشعورية.

وقد تبين من خلال النماذج التي تمت دراستها أن الالتفات الزمني ساهم في تأكيد سمتين من سمات يوم القيامة هما: المفاجأة والسرعة في الحدوث وهو يجعل المخاطَب يعيش جو المفاجأة وسرعة التحول على مستوى الموضوع المتحدَّث عنه وعلى مستوى الحدث التخاطبي بالانتقال من زمن إلى آخر بنحو مفاجئ وسريع جدًا، فتتغير الأزمنة، وتتغير العلاقات، وتتغير أحوال الشخوص...إلخ، كل ذلك يحدث في لمحة التفاتة زمنية، مفاجئة يستشعر المخاطَب معها التسارع العجيب بالانتقال الزمني، والتغير الحدثي.

وهو يجعل المخاطَب يقف بعقله ومشاعره وأحاسيسه إزاء صورتين زمنيتين مختلفتين للمحدَّث عنه، لكنهما في النهاية تتكاملان في تقديم المتحدَّث عنه للمخاطَب فترسخ الصورتان، في عقله ومخيلته ويعايش ما فيهما من اختلاف وتغيير، وتحوّل وانقلاب، ويجعل المشهد قائمًا في ذاته، يدركه بعقله ويتغلغل في نفسه ووجدانه، مستشعرًا ما فيه من عظمة ورهبة.

الالتفات الزمني تقنية من تقنيات الخطاب، فهو يغير منحى الخطاب في اللحظة المناسبة وبالصورة الزمنية الأنسب في كل مرحلة من مراحل الحدث التخاطبي، فتارة يجعل المتحدَّث عنه في حيّز المستقبل، فيكون وعدًا أو وعيدًا، أويستحضره فينقل المخاطَب إلى قلب الحدث، ويجعله يعايش لحظاته بنفسه،

وقد يحوّله إلى ماض انقضى زمن وجوده، فينقل المخاطَب إلى الصورة النهائية للمتحدَّث عنه، فيتأكد له أن الزمن حركة دائمة غير مستقرة فالمستقبل سيغدو حاضرًا أوماضيًا منقضيًا.

بالالتفات الزمني يتم التدرج في عرض المشهد، وإظهار شدته وعظمته وهوله، للمخاطَب، وهو يثير مخيلة المخاطَب إزاء حدث ما فيقف ليتأمله، أويجعل الحدث ينقضي فيطوى بسرعة خاطفة.

المراجع:

- ابن الأثير (ضياء الدين بن الأثير):
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، القاهرة/ مصر، دار نهضة مصر، د.ط، د.ت.
- الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تحقيق: مصطفى جواد وجميل سعد، العراق، المجمع العلمي العراقي، 1956م.
- ابن الأثير (نجم الدين)، جوهر الكنز «تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي البراعة»، تحقيق: محمد زغلول سلام، الإسكندرية/ مصر، منشأة المعارف، د.ت.
- ابن جني (أبو الفتح عثمان)، الخصائص، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، بيروت/ لبنان، دار الكتب العلمية، ط1، 2001م.
- ابن عاشور (محمد الطاهر)، التحرير والتنوير، تونس، دار سحنون، د.ت.
- ابن فارس (أبو الحسن بن زكريا)، مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دمشق/سوريا، دار الفكر، ط1، 1979م.
- ابن المعتز (أبو العباس بن عبدالله)، البديع، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، بيروت/ لبنان، دار الجيل، ط1، 1990م.
- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين بن محمد)، لسان العرب، بيروت/ لبنان، دار صادر، ط1، 1998م.
- أبو حيان (محمد بن يوسف بن علي الأندلسي)، البحر المحيط في التفسير، بيروت/ لبنان، دار الفكر، 2005م.
- البخاري (أبو عبدالله محمد بن إسماعيل)، صحيح البخاري، تحقيق: محمد علي القطب، وهشام البخاري، صيدا/ بيروت، المكتبة العصرية، ط1، 1997م.
- البغدادي (أبو طاهر محمد بن حيدر)، قانون البلاغة في نقد النثر والشعر، تحقيق: محسن فيّاض عجيل، بيروت/ لبنان، مؤسسة الرسالة، ط2، 1989م.
- البقاعي (برهان الدين أبو الحسن إبراهيم)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، بيروت/ لبنان، دار الكتب العلمية، ط4، 2011م.

- الثعالبي (أبو منصور عبدالملك بن إسماعيل)، فقه اللغة وأسرار العربية، تحقيق: ديزيرة سقال، بيروت/ لبنان، دار الفكر العربي، ط1، 1999م.
- الجابري (منى)، المشيرات المقامية في القرآن، مسقط/ سلطنة عمان، النادي الثقافي، وبيروت/ لبنان، دار الانتشار العربي، ط1، 2013م.
- الجوهري (أبو نصر إسماعيل بن حمّاد)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: إميل بديع يعقوب، ومحمد نبيل طريفي، بيروت/ لبنان، دار العلم للملايين، ط4، 1987م.
- الخطابي (محمد بن إبراهيم)،بيان إعجاز القرآن، ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني، والخطابي، وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد خلف الله، ومحمد زغلول، القاهرة/ مصر، دار المعارف، ط3، د.ت.
- الخيرو (مازن موفق صديق)، الإعجاز البلاغي في الخطاب القرآني «الالتفات أنموذجًا»، إربد/ الأردن، مكتبة دار البيان، ط1، 2010م.
- درّاز (محمد عبدالله)، النبأ العظيم «نظرات جديدة في القرآن»، الرياض/ السعودية، دار طيبة، ط1، 1997م.
- الراغب الأصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمد)، معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دمشق/ سوريا، دار القلم، ط4، 2009م
- الزركشي (بدر الدين محمد بن عبدالله)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، صيدا/ بيروت، المكتبة العصرية، د.ط، 1998م.
- الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، بيروت/ لبنان، دار إحياء التراث العربي، ط2، 2000م.
- الزملكاني (كمال الدين عبد الواحد)، التبيان في علم البيان المُطلع على إعجاز القرآن، تحقيق: أحمد مطلوب، وخديجة الحديثي، بغداد/ العراق، مطبعة العاني، ط1، 1964م.

السكاكي (أبو يوسف يعقوب بن يوسف)، مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور، بيروت/ لبنان، دار الكتب العلمية، ط2، 1987م.

- السمين الحلبي (شهاب الدين أبو العباس بن يوسف):
- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: علي محمد معوض وآخرون، بيروت/لبنان، دار الكتب العلمية، ط2، 2013م.
- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، تحقيق: محمد باسل عيون السود، بيروت/ لبنان، دار الكتب العلمية، ط1، 1996م.
- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: فؤاد أحمد زمرلي، بيروت/ لبنان، دار الكتاب العربي، ط2، 2000م.
- طبل (حسن)،أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية،القاهرة/ مصر، دار الفكر العربي، 1990م.
- العسكري (أبو هلال الحسن بن عبدالله)، الصناعتين «الكتابة والشعر»، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، صيدا/بيروت، المكتبة العصرية، ط1، 2006م.
- العلوي (يحيى بن حمزة)، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق التنزيل، بيروت/ لبنان، دار الكتب العلمية، د.ت.
- قطب (سيد)، في ظلال القرآن، القاهرة/ مصر، دار الشروق، ط25، 1996م.
- لاشين (عبد الفتاح)، من أسرار التعبير في القرآن الكريم «بناء التراكيب»، القاهرة/ مصر، 2014م.
- المغربي (ابن يعقوب محمد بن عبدالله)، شرح مواهب الفتاح على تلخيص المفتاح، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، صيدا/ بيروت، المكتبة العصرية، ط1، 2006م.
- ناجح (فيصل عبد النبي)، الالتفات في القرآن الكريم «دراسة في القيم البلاغية»، أسيوط/ مصر، كلية الآداب قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية، 2013م، (مخطوط).
- الهيشري (الشاذلي)، الالتفات في القرآن، تونس، حوليات الجامعة التونسية،ع32، 1991م.